



محمد سعيد الريحاني



© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة ل

[www.nashiri.net](http://www.nashiri.net)

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب

نشر إلكتروني في يونيو 2004

## المحتويات

- تصدير أول
- تصدير ثان
- تقديم بقلم د محمد أسليم
- العيد
- المقص
- التشظي
- الفرجة، الضباب والمشروع
- في انتظار الصباح
- الأبدية
- الأفواه الفاعرة
- هوية
- أرض الغيلان
- الشرخ
- حديث غراب
- وطن العصافير المحبطة
- افتح يا سمسم!
- الحياة بلامح مجرم
- نص لفريديريك نيتشه: هل كان سقراط مجرماً؟
- حوار صحفي بمناسبة صدور "في انتظار الصباح"، المجموعة القصصية
- السيرة الذاتية للكاتب محمد سعيد الريحاني

## تصدير أول :

"إنه عملية انتظار لا تنتهي ولكنها تبدو من جديد بشكل خفي كل يوم. وإذا كان الانتظار ينطوي على حركة فهي حركة دائرية، إن كل يوم عود إلى اليوم السابق. لا شيء يكمل لأن ما من شيء يمكن إكماله".

د.نعيم عطية

مسرح العبث : مفهومه، جذوره، أعلامه

ص 68

## تصدير ثان :

"الكل يذهب والكل يرجع وعجلة الكون تدور إلى الأبد. كل شيء يموت وكل شيء يعود فنتور أزهاره ودوائر الوجود لا انتهاء لها. تتحطم الأشياء فتتبدد ثم تعود فتلتئم لتجديد بناء الوجود يتفرق الشمل على وداع فإذا بعده تسليم، فحلقة الكون أمينة لذاتها إلى الأبد. إن الوجود يبدأ في لحظة فعلى محور "هنا" تفتتح دوائر الأجواء "هنالك" فالمحور مرتكز فى كل مكان وطريق الأبدية كله تعاريج".

فريدريك نيتشه

هكذا تكلم زرادشت

الترجمة العربية

ص. 249

## تقديم

بقلم الكاتب المغربي د. محمد أسليم

### العيد :

نص يوقف عقارب الزمن و يلغي الأعياد الزائفة و الأفراح المختزلة في اليافطات على الشوارع...

### المقص :

نص مقتص من مجتمع لغة تواصله هي المقص و الرقابة.

### في انتظار الصباح :

نص لا يبدأ و لا ينتهي في زمن واقف و ساعات معطلة و معاناة إنسانية خارج الزمن.

### الفرجة، الضباب و المشروع:

نص حول الصراع الخفي بين الثقافة الشعبية و الثقافة الرسمية.

### التشطي :

نص مفتت حول شخصية متشظية تخلت عن تقرير مصيرها بيدها.

### افتح يا سمسم !

نص يعتمد تقنية الحلم، التداعي الحر، في رحلة من الحلم الفردي إلى الحلم الجماعي.

### أرض الغيلان :

نص يرصد تطور الخطاب من خطاب الحقيقة (زارادشت) إلى خطاب التعبئة (خطاب طارق بن زياد) إلى خطاب السلطة ...

### وطن العصافير المحبطة :

نص حول الحرية، حول الطيران، يتعرض لتوق الإنسان للحرية في ثلاث نماذج : نموذج التهور، نموذج الإستسلام، نموذج الإصرار....

### هوية :

نص دائري بأمكنته و أحداثه (كوميسارية، درج، ساحة و نافورة، سوق، ساحة و نافورة، مقهى ثم عودة إلى الكوميسارية....)

### الشرح :

نص متشقق كموضوعه. كل شيء يتشقق و ينتظر الإنهيار : العمارة، البنية السردية،  
القناعات.....

### **حديث غراب :**

نص حول حرية التعبير، يرويها غراب مسخ لإخلاله بحقه في التعبير الحرو القول  
الشريف.

### **الأبدية :**

نص تأئه بين دوائر مفرغة و زمن واقف و فراغ قاتل.

### **الحياة بلا ملامح :**

نص حول مجتمع محتمل يجرم كل مواليده و يحكم عليهم بالسجن المؤبد اتقاء لشروهم و  
ميولهم المستقبلية، السجن المؤبد مع وقف التنفيذ.

نص التقديم الشذري المنشور على موقع د. محمد اسليم على الشبكة الدولية للمعلومات  
(الأنترنت):

<http://aslimnet.free.fr/editions/raihani/contes/preface.htm>

## العيد

"إنني لا أحب أعيادكم، إذ رأيتها مليئة بالممثلين، ورأيت  
المترجمين أبرع منهم تمثيلاً".

فريدريك نيتشه ،  
هكذا تكلم زرادشت  
(الترجمة العربية ) ص. 87

تاريخ اليوم على الأجندة الحائطية مؤطر بالأحمر.

هل اليوم عيد ؟ !

أصبحت أنسى أيام الأعياد فلا أتذكرها إلا صدفة عند تسكعي في شارع المدينة  
الرئيسي حيث تعبت الأضواء الموسمية بسحنات رواد المقاهي المظلمة برايات بالية  
ولافتات مكشاة توارت أغلب الحروف المكتوبة عليها...  
نفس علامات العيد التي تتكرر منذ الأزل. لكنني أذكر أنني، طفلاً، لم أكن  
أجهل تواريخ الأعياد لهذا الحد. لم أكن أترك للافتات فرصة مفاجأتي. بل لم أكن  
أنام ليلة العيد : أسهر أمام الساعة الحائطية منتظراً شروق العيد لأرتدي  
ملابسي الجديدة وأكثرى دراجة هوائية أسابق بها أصحابي و... لا أذكر كيف  
كان النوم والحلم يحتلان علي فيلبساني أزهى القمصان ويوقعان عليها أعذب  
العبارات. رفقائي يتجهجون العبارة على صدر قميصي مبتهجين :

" مثل طائر "

بهجتهم تغمرني ... أجري ... أررف ... مثل طائر ... أطلق ذراعي الصغيرتين  
لأطير ... أحاكي الطائر فوقى وهو يسبح في زرقاء السماء دون خفق جناح ...  
يعلو ... يعلو ... يعلو ... لكن رفقائي كانوا  
يفسدون علي

الطيران. يفترسون إبطي ويتسلون بهستيريا  
الضحك والركل التي ينالونها مني فلا أتخلص منهم إلا بظهور الطائر  
القادم من الأفق حيث ينصرفون لاستقباله بالغناء والتصفيق :

اشطح، اشطح بوعميرة

انعطيك الزيت والخميرة

فينزل الطائر حتى مستوى سطوح المنازل المتكئة على بعضها البعض : يرقص  
كلما غيننا، ويبتعد كلما توقفنا لكنه يعود ثانية وثالثة متى عاد الغناء، رقاصاً خففاً  
بجناحيه لقاء الأغاني والوعود...

اشطح، اشطح بوعميرة

انعطيك الزيت والخميرة

كان الطائر يطل علينا كل صبيحة عيد فيظل يحوم عاليا بانتظار خروجنا  
إلى الحي ليشاركنا العيد والرقص والغناء، لكنه اختفى مع مر الأيام :

ربما لأن الناس هنا شاخت

ربما لأن طيور العيد انقرضت

أو ربما كان الأمر من أوله مجرد وهم من أوهام الطفولة...

أقلب الآن أوراق الأجندة المتهترئة برطوبة المكان بحثا عن أرقام حمراء  
وتواريخ أعياد مقبلة.

أقلب الورقة تلو الأخرى.

أقلب. أقلب. أقلب ...

لا شيء.

اليوم، إذن، كان آخر الأعياد.

سنة 1994

## المقصـ

ألبسوني بردة شفافة  
يوم الختان .  
ثم كان  
بدء تاريخ الهوان  
شفت البردة عن سري،  
وفي بضع ثوان  
نبحوا سري.  
وسال الدم في حجري  
فقام الصوت في كل مكان  
ألف مبروك:  
وعقبى للسان!

أحمد مطر  
--الختان

### النصيحة :

... إذن، اسمعني جيدا. فتجربتي الطويلة مع المرض والعمليات الجراحية  
وشروحات الأطباء علمتني الشيء الكثير عن أسرار الجسد. فالناس جميعا لهم  
دودة زائدة، لكنها لا تؤذيهم جميعا...  
واعلم أنها إذا آذتهم حذفوها بمقص الطبيب دون كبير عناء لأنها عضو  
جسدي قديم لم تعد له وظيفة حاليا...  
واصغ جيدا. فأنا أعرف سر قلقك وغربتك بيننا، نحن أبناء بلدك : إنك  
تحتفظ بسلوكات قديمة لم تعد لها وظيفة حاليا...  
دعني أخلصك من مأزقك، وافتح لي أبواب عقلك لأقدم لك دروسا تقويمية  
تجعل منك رجل العصر، سيد المرحلة...

### درس الغضب :

- 1 - ... !
- 2 - اششش !
- 1 - ...
- 2 - ألا تعي ما تقول ؟ !
- 1 - ...
- 2 - أنظر حواليك
- 1 - ...
- 2 - انظر كيف يخفي الناس وجوههم بين أيديهم حرجا ؟ !
- 1 - وما لي وحرجهم ؟ أنا غاضب.
- 2 - اختر معجم غضبك ...
- 1 - إنه الغضب ! كيف أختار ؟

2 - تعلم ذلك .

### درس الفرح :

- 1 - ... !
- 2 - اششش !
- 1 - ...
- 2 - ما هذا الهياج ؟ !
- 1 - أنا أضحك ...
- 2 - أهكذا تضحك دائما ؟ !
- 1 - ما المثير في ضحكتي ؟ !
- 2 - الضحك لا يناسبك ...
- 1 - ...
- 2 - ابتسم .
- 1 - إن الأمر أقوى ؟ !
- 2 - تعلم ذلك .

### درس اليقين :

- 1 - ... !
- 2 - اششش !
- 1 - ...
- 2 - ماذا تقول ؟ !
- 1 - رأيي ...
- 2 - رأيك أم حقتك ؟ ألا ترى ما في قبضات الناس من أصناف الصخور ؟ !
- 1 - ...
- 2 - إنهم يستعدون لرجمك ...
- 1 - رجمي ! ...
- 2 - قليلا من الشجاعة، إذن !
- 1 - ماذا سأفعل ؟ ...
- 2 - اسحب رأيك ، قبل فوات الاوان ...
- 1 - لكنني لم أعتد على ذلك !
- 2 - تعلم ذلك، وبسرعة ! ...

### بعد انتهاء الدروس :

- 1 - أرجوك . لا تفارقني ...
- 2 - لماذا ؟ لقد أفادتك الدروس وقومتك وأصبحت شخصية اجتماعية ووجهها أليفا و ...
- 1 - أرجوك، فأنا لم أعد أعرف لا ما أريد ولا ما أقول ولا ما أفعل ولا ما أقدم ولا ما أؤخر ...
- 2 - هذا يحدث للناس جميعا ...
- 1 - لا . إحساسي بأخطائي هو أشد من أي وقت . يستحيل وجودي من الآن فصاعدا دون شخص يوجهني ويقودني ...
- 2 - لا داع للقلق، سأظل دائما إلى جانبك .

- 1 - وإذا غبت ؟ !  
1 - آنذاك، ألزم الصمت... ريثما أعود.  
سنة 2000

## التشظي

دور يا كلام على كيفك دور  
خلي بلدنا تعوم في النور  
ارمي الكلمة في بطن الظلمة  
تحبل سلمى وتولد نور  
يكشف عيينا  
ويلهأبنا  
لسعة في لسعة  
نهب نثور  
دور يا كلام على كيفك دور"

كلمات : أحمد فؤاد نجم  
ألحان وغناء : الشيخ إمام

الحدث : زيارة محتملة للمفتش  
الشخص : المعلم س ومن (لا) يهتم به  
الزمان : السنة الدراسية الحالية  
المكان : مدرسة قروية وما (لا) يجاورها

## الأسبوع الأول

المعلم س :

سألعب كل أوراقك لكسب هذا الرهان. سأهين الجو داخل الفصل. ضبط التلاميذ مهم. عددهم الكبير مشكلة. حالة المراقبة التي يعيشها أغلبهم مشكلة أخرى بالنسبة لي. خارج العمل، علاقتي سلمية مع آباء التلاميذ والزملاء المعلمين والإدارة الجديدة للمدرسة...

المدير :

يدك ترتعش، يا أستاذ. يبدو أنك غير مرتاح لزيارة المفتش المقبلة. لكنك بحاجة لنقطة امتياز تصالحك مع الإدارة وتبرهن عن مردوديتك وكفاءتك بعد كل هذه السنين من العقوبات التأديبية والإنذارات والتقييلات التعسفية... سأقف بجانبك، أنا المدير الجديد، لمساعدتك على الخروج من المأزق. الفشل ليس قانونا. الفشل فرصة لمراجعة آليات العمل ومعاينة النتائج. فاستعد جيدا. الوثائق. الهدام. تصحيح الدفاتر. تصحيح الكراسات. ضبط القسم... اضبط قسمك أكثر. تلاميذك أكثر ومراقبون. اللين معهم ليس في صالحك، أنت مقبل على تفتيش : فرصتك التاريخية...

## الأسبوع الثاني

### تلاميذ القسم :

- يا للقسوة ! ....
- لقد تغير معلمنا ...
- لماذا ؟
- لا أدري.
- لم أعد أطيع الدخول للقسم.
- كل الدروس أصبحت نهرا وشتما ...
- كل حركة أثناء الدرس أضحت تثيره.
- أقضي كل وقتي جامدا على مقعدي. احترس في كل نظراتي وحركاتي حتى لا أكون عرضة للقدح.

### آباء التلاميذ :

- هذه المدرسة أصبحت معتقلا لأطفالنا ...
- أولادنا صاروا ينفرون منها بسبب قسوة هذا المعلم ...
- هذا لا يجب أن يستمر ...
- يجب أن نتحرك كأباء ...
- يجب أن ننتظم أولا.

### المدير :

ماذا يدور بدماغ هؤلاء ؟ لماذا احتشدوا بهذا الكم حول الإدارة ؟ لم يحدث أبدا أن كانوا بهذا الحماس !... عندما نستدعيهم لاجتماعات آباء وأولياء التلاميذ، يختفون داخل منازلهم. بعضهم يهربون حتى من بيوتهم خوفا من تحمل المسؤوليات. واليوم، جميعهم يلحون على ضرورة تجديد مكتب الجمعية وفي أقرب الآجال ...

### زوجة المعلم س :

لا أعرف كيف يعيش زوجي لوحده في تلك القرية، خلال أيام عمله. هو صامت، بعد سنين النشاط والشباب الدائم. يسكت أكثر مما يتكلم. لا آخذ عنه إلا ما أتخيله. أحيانا يخامرني الشك حول صدق ما كونه عنه من صور وأحاسيس. وأشعر بأنني بعيدة، بعيدة عنه ... يعز علي أن أراه يكتوي في صمت ...

### المعلم س :

أحس وكأنني لم أعد أعرف ما أريده. لهذا لا أجد ما أقوله. الصمت يناسبني. أحيانا حين أنتبه لحياتي، يروني منظري : دائما مجرور، مثل محراث قديم. أحيانا أخرى،

أتخيل نفسي بيضة تتدحرج في كل الاتجاهات. أتخيل نفسي بيضة كبيرة. وأشعر بالاختناق تحت قشرتي.

### الأسبوع الثالث

#### المعلم س :

لم أختنق أبدا في منام مثلما حدث لي الليلة الماضية خلال هذا الحلم. حلم غريب : لا أحد يراني. غير مرئي. الكبار والصغار ينظرون من خلالي. كأنني قطعة زجاج. كأنني لا شيء. زملائي يمرون أمامي ولا ينتبهون إلي. أناديهم. يستديرون. ينظرون من خلالي إلى أشياء بعيدة ورأئي. يدققون النظر إليها ثم يجرون بعضهم بعضا وينصرفون. لا أحد يراني. وأحسست بالوحدة. بالعزلة. بالوحشة ...

#### زوجة المعلم س :

لا يقول شيئا. لا يفصح حتى عن هيجانه. أحيانا حين يشتد غليان صمته، ينتصب غولا. عفريتًا. وحشا كاسرا ... فأخافه . أدوب خوفا حين تتتابه هذه النوبات. يكسر الأواني ويركل المنقولات والأثاث المنزلي ويقذف بالأحذية على صوره المعلقة على الجدران ... وحين يتعب، يتهالك أرضا. لا يطاق ! الحياة معه مجرد تكسير. قد يصلني دوري قريبا. لا بديل لي عن الطلاق.

#### أحد الزملاء المعلمين :

يعز علي أن أراه مشنتا هكذا. يخطو في كل الاتجاهات ثم يتراجع عنها جميعا. سلوكه مع التلاميذ انقلب عليه. غالبيتهم انقطعوا عن الدراسة. أخبرني تلميذ منقطع أن س يزور بنفسه المنقطعين في بيوتهم ويقنعهم بالعودة للمدرسة، حفاظا على نسبة الحضور إلى حين مرور التفتيش ...

#### المعلم س :

اليومية تسلخ عنها أوراقها بسرعة غريبة. لم يعد يفصلني عن زيارة المفتش سوى أيام معدودة. القسم محكم. نسبة المواظبة : مائة في المائة. في حالة حضور المفتش في حصة "القراءة"، سأقدم درسا من خارج المقرر الدراسي. تعامل التلاميذ مع نص غير أكاديمي قد يساعد المفتش على بلورة فكرة صحيحة عن مستوى التلاميذ ...

#### التلاميذ :

- المفتش سيزورنا قريبا.
- من قال ذلك ؟
- المعلم.
- وما لنا والمفتش، نحن ؟!
- يجب أن نكون في المستوى ...
- وإذا لم نكن ؟
- المعلم سيغضب.
- هو دائما غاضب ...

## الأسبوع الأخير

### استدعاء :

نحن

بناء على المسطرة المتبعة في القضية المشار إليها طرفه.  
بناء على الفصلين 36 و 329 من قانون المسطرة المدنية  
نأمر باستدعاء المدعي أو المستأنف السيد س.  
وذلك للحضور في الجلسة العلنية التي ستعدها المحكمة يوم كذا كذا للنظر في القضية  
المشار إليها طرفه.

### شكاية :

نحن آباء وأولياء التلاميذ، نتقدم إلى سيادتكم الموقرة ،ونحن في كامل الأسف  
والسخط، بهذه الشكاية ضد شخص المعلم س. الذي تجاوز حدود التربية ليسمح  
لنفسه بإهانة التلاميذ وضربهم ضربا مبرحا. وهذا ما جعل أبناءنا يعرضون عن العودة  
للمدرسة.

وإننا، إذ نراسلكم في هذا الصدد، ننتظر منكم اتخاذ الإجراءات اللازمة.  
وتقبلوا، سيدي، ثقتنا في قراركم.

### تقرير :

اختار السيد المعلم نصا قرائيا من خارج المقرر الدراسي. طبعه بالآلة الكاتبة على  
أوراق ووزعها على التلاميذ رغم أن بداية السنة الدراسية تتطلب التزاما بنصوص  
المقرر. ولقد اختار السيد المعلم كعنوان لهذا النص :

### " من أجل تواصل أفضل".

وهو عنوان غير مبرمج سلفا في التوزيع الشهري، كما أنه عنوان نشاز بين مواد الوحدة  
التربوية المقررة لهذا الأسبوع.

نرفزة السيد المعلم خلال الدرس كانت واضحة، مما أثر سلبا على معنويات التلاميذ  
الذين كانت قراءة النص تفرض عليهم فرضا حين لا يبادر أحد بذلك.  
السيد المعلم لم يحقق الهدف من الدرس. أدعوه لعقلنة عمله بتنصيب الأهداف  
الإجرائية والخضوع لسلطة المقرر الدراسي ومنهجيته.  
علائقا، يتمتع السيد المعلم بعلاقات غير طيبة مع أولياء التلاميذ. أدعوه لفتح باب  
الحوار معهم. واتباعه للنصائح المسداة إليه قد تساعد على تطوير أسلوبه في العمل.

سنة 1995.

## الفرجة، الضباب والمشروع

"شيد قصورك ع المزارع  
من كدنا وعرق إيدينا  
والخمارات جنب المصانع  
والسجن مطرح الجنينة".

كلمات : أحمد فؤاد نجم  
ألحان وغناء : الشيخ إمام

الضباب الصباحي يمسح معالم ساحة الفرجة وحلقاتها المسائية، يخرس صدى  
تصفيفات المتفرجين وما علق بالذاكرة من تعاليقهم المرححة، يطمس آثار ثقافة الأمس فلا  
يفلت من تضليله سوى صياح هذا الديك :

كوكو ريكو !  
كوكو ريكو !

صياحه الرنان بين قصدير البراريك المتحلقة حول الساحة يستثير ردودا متفرقة من  
ديكة نائية.  
الديكة تتنادى، تتواصل عبر لا نهائية هذا الضباب :

كوكو ريكو !  
كوكو ريكو !

قطرات الندى ترتج لقوة الصياح وتترلق بطيئة على القصدير، غاسلة الكلمات  
المشخبطة عليها :

رسوم لقلوب مغمدة بالسكاكين  
عبارات منع التبول ورمي الأزبال  
أرقام مرتبة تناقصيا ...  
الضباب.

صياح الديك يستحيل زعيقا وراء عبارة منع :  
"ممنوع رمي الأز ..."

تتوارى الحروف الأخيرة من المنع داخل براكعة مع انفتاح باب وإطلالة عجوز  
تمسك، من الجناحين، بديك ضخم يحركها كاملة كلما انتقض بين يديها. تقف على العتبة.  
ترقب الخيالات الصباحية الصغيرة وهي نكنس ساحة الحي بربطات أعشاب يابسة وتنقل  
الأحجار وتجمع صفحات الجرائد التي يحملها المتفرجون معهم إلى الحلقيات المسائية  
ليجلسوا عليها ...  
أغنية قديمة بصوت طفولي تصدح، عبر الضباب، في مكان ما جهة السقاية. صوت  
طفولي أنثوي يغني :

يا الجيلالي، ها هم ليك ها هم ليك  
يا الجيلالي، احرش العيون، أه.

راكب على بغيلته  
يتسارى في قبيلته  
ما راضي بحكم النصارى  
ها هم ليك، ها هم ليك  
يا الجيلالي، احرش العيون، أه.

الصدى ينساب هادئا، سلسا، بعيدا ...  
سرب من الرجال يتقدمون داخل الضباب نحو وسط الساحة، يتحلقون حول أقصرهم  
: رجل بدين يخشخش المفاتيح الكثيرة بيد ويداعب باليد الأخرى بطنه المكورة. يرسم  
بسبابته مستطيلات في الهواء، يشرح بذراعيه القصيرتين، يخطط بمقدمة حذائه على  
الأرض ...

العجوز، لنفسها، بصوت مسموع :

- اشكون هادو ؟

انقض الديك بقوة حتى كاد يلقيها أرضا.  
تمالكت نفسها من السقوط. أسندت ظهرها على طقطقة القصدير وراءها. السند خلفها  
لا يعتد به.

عدلت وقفقتها :

- ربما الحلايقية طالبوا بعمود الضوء على حساب الفراجةو السهير ...  
صغيرات، بدورهن، توقفن عن الكنس، يراقبن، بحذر، العمال وهم يساعدون صاحب  
العربة في إفراغ حمولتها من الاجور والإسمنت والرمل ...

إحدى الصغيرات سألت العجوز :

-آش غادي يديروا هادوا، امي عابشة ؟

- أشغال هادو، يا ابنتي، كتعرف بأخرها ...

-هاذ الفروج لهم ؟ ...

زعيق باب مجاورة يقطع أسئلة الطفلة، لكنها تصيح منادية الشيخ الخارج بإبهامه في  
عين البندير :

- عمي الجيلالي، شوف !

يسحق الجيلالي عود ثقاب ويشم دخانه كعادته حين يريد التركيز أو تدقيق النظر في  
أمر ما ينتعش، ثم يبارك للعجوز ديكها يقترب أكثر. يتحسس الديك بيده. يزنه من رجليه :

- الذبيحة على عتبة الدار، مهمة ! ...

الصغار والصغيرات يتحلقون حول الجيلالي، يجرونه من جلبابه، يلحون عليه بالغناء :

- فرجنا، عمي الجيلالي ! فرجنا ! ...

- الصباح وقت العمل. الفراجة مع المسافرين في المحطة. غادي في مهمة: الدراهم،  
اوليداتي. الحبشي. النيكل. اللعاقه... مازال البرنامج خاف عليكم ؟ الحلقة في العشية...  
أولادي. باي.

يتخلص منهم. يتسلم السكين من يد العجوز. يمرر الشفرة على ظفره. يراقب أثرها  
ويطلب الديك.

تتحاشى العجوز رؤية الدم، تتشغل بصرف الصغار وزجر الكلاب والقطط ...  
القطط، الآن، فوق الزنك، تراقب تعابير الدم التي يرشها الديك المذبوح على  
الأرض، منتقضا أو راقصا على إيقاع الأغنية القادمة من السقاية:

يا الجيلالي، ها هم لي ها هم ليك  
يا الجيلالي، احرش العيون، أه،  
راكب على بغيلته  
يتسارى في قبيلته  
ما راضي بحكم النصارى

ها هم ليك، هاهم ليك  
يا الجيلالي، احرش العيون، آه.

يبتعد الجيلالي من شررات الدم كلما اقترب منه الديك. ينظر باستغراب إلى ديك لا يشبه الديكة. ديك مذبح يجري في كل اتجاه.  
على رجليه. على جناحيه. على ظهره. ديك يقاوم الموت حتى آخر قطرة دم ...  
في انتظار هدوء الديك، أمسك الجيلالي بنديره وبدأ ينقره. العجوز تتابع بعينيها حركات الديك وهي تحرك رأسها لأزيز البندير :

ها البندير تكلم، اوليدي  
هايلي، هايلي البندير تكلم، آهاه.  
الليلة، الليلة  
والليلة شايبة  
ما نركدوا غير إذا ما  
ضوى الحال، آه.

على الأرض، الديك لازال يقفز ويتمرغ في دمائه. يقف مقاوما التعب والموت.  
يتراخي قليلا قليلا. يثور من جديد. يطير. يسقط. ينقلب على ظهره. يثب واقفا على رجليه.  
يجري. يجري. يجري ...

تنتفض العجوز كأنما أدركت خطأ :  
- أش هاد الذبيحة، الجيلالي ؟ الفروج مازال حي ! عاوده بالذبيحة ! غادي يموت حرام ! اجر ! حط البندير على الأرض ...  
الأطفال يجرون وراء الديك. يفرون منه حين ينتفض. يقبلون عليه حين يستكين.  
يلتقطونه أخيرا. يتسابقون لملامسته. يحملونه. هادئا. ميتا. يقدمونه لصاحبه وقد عادت البسمة إلى محياها. يستثمر الجيلالي ابتسامتها:

- مرحبا بنا عندك للعشاء ...  
- اليوم، قصعة كسكس لكل حلقة ...  
- وإذا أخلفت الوعد ؟ قصيدة، غادي ننظم عليك هاذ العشية ...  
- أنا في عارك ! القصيدة، لا ...  
الضباب بدأ في التراجع. الساحة، الآن، تستعيد بعض معالمها.  
العمال، بصمت، يشتغلون.  
العجوز للجيلالي :

- غريب أمرهم !  
- ما كيديوها ف احد ...  
- إيوا أش كيديروا ؟!  
- اللي ظاهر، أنهم كيبيروا شي حاجة ما كتهمناش ...  
- لو كان الأمر كيغنينا كون طالبونا بالفطور والمعونة ...  
- وكيبيروا وسط الساحة !  
- غير خسارة الحلاقي، وصافي ! ...

العمال، الآن، يضعون آخر اللمسات على هذا المستطيل الإسمنتي. يتعاونون ليغرسوا فوقه لوحة حديدية. عاليا. فوق متناول الأيدي العابثة. يتأكدون أن اللوحة ثابتة. يسعفونها ببضع ضربات من خليط الإسمنت والرمل. ينزلون. يراقبون وضع اللوحة الحديدية فوق المستطيل. يبتعدون عنها. يقتربون منها. يقرؤونها. يمسحون بالإسفنجة شظايا الإسمنت عليها ...  
اللوحة، الآن، عالية وواضحة.

جمع العمال أدواتهم وينصرفون.  
تلكز العجوز الجيلالي :  
- كل هذه القيامة على هذه الركيزة ؟!  
- خاص نقرأوها، بعدا.  
يحاول طفل أن يقرأ لهما اللوحة :  
- م . مش . رو . مشرو ...  
تصرفه العجوز بلطف :  
- باراكاة باراكاة ...  
لكن الطفل يستمر في إثبات قدرته على القراءة :  
- مشروع م . مر . مركب ...  
تتهره :  
- قلت لك : سر تلعب ! ...  
يشعل الجيلالي عود ثقاب. يرمش انتعاشا بدخانه : عادة أدمن عليها منذ خروجه  
متقاعدا من الجيش حيث قضى شبابه بين رائحة البارود وهياج التحرير.  
يقترب من اللوحة ليقرأها :  
- "مشروع مركب سياحي"  
الذهول يكتسح ملامح الرجل.  
يعيد القراءة ثانية وثالثة. يحاول فهمها قبل شرحها للعجوز التي تلح عليه لكرا من  
الخلف. لكن غناء الصغيرات يشوش عليه :

يا الجيلالي، ها هم ليك ها هم ليك  
يا الجيلالي، احرش العيون، آه،  
راكب علي بغيلته  
يتسارى في قبيلته  
ما راضي بحكم النصارى  
ها هم ليك، ها هم ليك  
يا الجيلالي، احرش العيون، آه.

الضباب، الآن، قد انجلي. الرؤية واضحة والشمس في عز السماء.  
وضع الرجل بنديره على الأرض. ظلل عينيه بكفه من الشمس، ماذا بصره إلى حيث تلتقي  
الأرض بالسماء من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بحثا عن بداية ونهاية المشروع.

سنة 1993

## في انتظار الصباح

إلى روح المعلم محمد حجوم، في ذكرى رحيله غرقا في  
فخاخ ثلوج جبال الريف بالمغرب.

**كاليغولا :** ...هي حقيقة بسيطة وواضحة تماما، ساذجة  
نسبيا، ولكنها صعبة وثقيلة. **هيلكون :** وما عساها تكون  
هذه الحقيقة، يا قيصر؟  
**كاليغولا :** الرجال يموتون وهم غير سعداء .

ألبير كامو  
مسرحية \*كاليغولا\*

النص الفرنسي، ص: 27/26

### الساعة الثانية عشر ليلا :

خشخشة المذياع تختلط وارتعاشات ضوء الشمعة الوحيدة لهذه الليلة. لسان الشمعة يحترق  
داخل دائرة ضوء باهت مقاوما طوق الظلام حوله. لم أعد أطيع النوم في هذه العتمة، فوق  
طاولات هذا القسم المبني على أنقاض مقبرة عتيقة في هذا الجبل المنسي... كم أخاف هذه  
القبور حوالي !

أخاف أن ينتفض أهاليها في يوم من الأيام. لابد أنني أزعجهم بحياتي بين موتهم...  
المدير، صباح هذا اليوم، عزاني في موت زميلي بدر الدين البدرابي وتمنى لي نقاهة  
طبية ثم شرح لي صعوبة الحصول على معلم ثان يعوض زميلي المرحوم،  
ويقتسم معي أفواج تلاميذ هذا القسم/ المدرسة. المدير أوصاني بقليل من الصبر ثم  
صارحني بعدم إمكانية الإخلال بالسير العادي للمؤسسة وحذرنني من مغبة تكرار المأساة :  
"**الحيوانات في هذه الأرض مجوعة**".

أتساءل : لو خطر هذا على بال ذلك السجين الهارب على متن دراجة حارسه، ترى  
هل كان يحسب للغابة والظلام حسابهما؟... ربما مثل هذه الحسابات هامشية وغير مجدية  
حين يتعلق الأمر بطلب الحرية. ولذلك انطلق الهارب من أسوار السجن المجاور تاركا  
وراءه رفاق السجن في ذهول ورعب يتهامسون في اليوم الموالي أطراف الخبر الجديد :  
عثر الحراس خلال المطاردة على نتف بذلة السجين الهارب متناثرة على أشواك الغابة  
حيث لازالت عجلتنا الدراجة النارية تدوران ببطء في الهواء قرب آثار جسم آدمي تمرغ  
طويلا في دمانه قبل أن يندثر ...

### الساعة الثانية عشر ليلا :

نفخات الريح المتسلل من شقوق الحائط تعبث بلسان الشمعة. أحيط الشمعة بكفاي.  
دموعها تنزلق حارة، كبيرة على جوانبها لتجمد على برودة المنفضة. الشمعة  
تتضاءل بإصرار. أرش حول فتيل الشمعة حبيبات ملح للحد من ذوبانها. هذه شمعتي

الوحيدة والليل مازال طويلا. الحقيقة أن الليل كان دائما طويلا. إنما الأمر كان أهون في السابق. لأننا كنا اثنين، معلمين.

كنا نعمل بالتناوب على هذا القسم المعزول بين هذه القمم الجبلية نربي أطفالا لا يتغيبون إلا أيام الأعراس والحراث والأمطار والفيضانات والتلوج والجنائز... أحيانا كان يأتي أحد الآباء ملتحفا كيس سماد فارغ ليتوسل الإفراج عن أطفاله حين تصادفهم نوبة مطرية قوية وهم داخل حجرة الدرس لأن الخنادق والوديان تفيض فتقطع الطرق... قساوة الطقس كانت تجود علينا، من حين لآخر، بعطلة استثنائية فنطلق سراح الصغار ونغلق علينا باب القسم ونوافذه لجمع الدفء للمساء. نصف الطاولات في شكل سريرين عاليين ثم نبسط عليها الأغذية. كأس شاي منعق قرب الوسادة ضروري لكل دردشة أو نقاش. لكن ليالي الشتاء الطويلة كانت تستنفذ كل مواضعنا. ولذلك أدمنا على القراءة، قراءة أدب السجون : بشر ينزلون بالمروحيات في معتقلات رهيبة ويتركون للتلوج. حتى إذا حاولوا الفرار، اعتقلوا ثانية واقتيدوا إلى حيث أريد لهم أن يقضوا بقية حياتهم... حكايات تتشابه كثيرا ومع ذلك كنا نفرؤها طول الليل. أحيانا كنا نقرأ نفس الرواية، في نفس الوقت، بصوت واحد. نرفع صوتنا عاليا لنقاوم الصمت والجنون. ذاكرة هذا القسم تشهد أن واحدا من كل معلمين يدخل عالم الحمق من باب هذه المدرسة.

الحياة والعمل بين القبور شيء رهيب: أن تدرس وترغد وتربد بين بشر يرتاحون إلى الأبد. أموات في مكان ميت وزمان ميت. الصمت شامل. كل الأشياء بلا لسان، بلا صوت، بلا حفيف... ولذلك كنا نترك المذياع مشغولا طول الليل. لا ننام إلا على خششته ولا نحلم إلى على إيقاعها. تعلمنا، مع مر الليالي، كيف نحلم نفس الأحلام في نفس الليلة. نستعد للحلم قبل النوم : نحدد موضوعا بتفاصيله وألوانه... وفي المنام، تتوحد مخاوفنا وآمالنا بحلم الهروب من المقبرة إلى حيث يقيم الأحياء... حلم يتكرر ويتكرر إلى أن استيقظنا ذات صبيحة على عزلة جديدة : الباب لا تفتح.

دفعناها بكل قوانا. ولا نتيجة. اقتلعناها من إطارها كاملة : يا للبياض!... الثلج حتى الركبة، الثلج عتبة بيضاء لا نهائية. صفحة بيضاء تطمس نتوءات القبور حول القسم وآثار العيون والخنادق والطرق... طالت مدة الثلج وارتفع تهديده بضع سنتمترات فوق الركبة. أصبحنا نخاف أن تغلق علينا الباب بالثلج وتتفد ذخيرتنا من الغذاء... كان أملنا هو أن يذوب الثلج بعد أربع وعشرين ساعة لكن الأيام ظلت تمر متشابهة:ليل بلا بدر و نهار بلا أفق يفصل بياض الأرض عن بياض السماء.

وفي لحظة ما من يوم ما، لاحت في البعيد خيالات صغيرة حية تخترق البياض وتركز العصي على طول المسلك : أهل القرية، تلك طريقتهم في التأكد من عمق الثلج قبل أن يتقدموا. يغرسون العصي أو القصب في الثلج ويتركونها مغروسة ليتذكروا ممر العودة إلى بيوتهم. بدون تلك الطريقة قد يسقطون بدورهم في فخاخ الثلج. في الخنادق والحفر التي يخفيها تحته. لكن أكثر ضحايا التلوج هم غرباء لا يعرفون جغرافية المنطقة. وحين ينجلي الثلج، تحفر لهم قبور قرب القسم ثم يدفنون دون مراسيم.

### الساعة الثانية عشر ليلا :

الشمعة تتناقص. الدموع الكبيرة تسيل ساخنة على جنباتها لتبرد على سطح المنفضة وتتجمد. الملح غير مجد. لا شيء يمنع الشمعة من الذوبان. هي تقترب من

21

من أهل القرية، غادرنا المكان. أن نسافر مشيا على لأقدام، شيء عادي. خاصة أيام السوق الأسبوعي حيث تنبض الطريق بحركة المتسوقين. عدا أيام السوق، فالغابة موحشة. صامتة إلا من أصوات طيور مذعورة تفر بين الفينة والأخرى من بين أشجار الأرز الباسقة. الآن، الطريق الطويل ينعرج يمينا. شمالا. يعلو. ينحني. خشخشات الزواحف على جوانب الطريق تضاعف من خوفنا وسرعتنا. نسابق غروب الشمس. التحام الأشجار يحجب الأفق. تفاصيل الأشياء في أرجاء الغابة تبهت شيئا فشيئا. الألوان تتوارى بالتدريج. الخيالات والظلال تنتصب في كل مكان. تكبر. تكبر. يذوب الظل في الظل. يصبح ظلا كبيرا، لونا واحدا : ظلاما. أخيرا، ها هو الليل. لا نرى، الآن، أبعد من موطن أقدامنا. الظلام دامس. سنتيه حتما إذا ما واصلنا الرحلة. مصباح الجيب غير مجد في هذا الظلام الدامس. الظلام المطلق. عجلة السجين الهارب تدور في خيالي. أكاد أسمع أزيز دورانها في الهواء في مكان ما حولنا. الظلام شديد والطريق لزال طويلا. لا بد من التوقف. لا بد من الراحة. تهالكت على الأرض. اتكأت على جذع شجرة ألهمت عيائي. قدماي تنتفخان حرارة داخل حذائي. النوم يذاعب جفني. النوم على أرض الغابة في ذلك الظلام مخاطرة عظيمة. فكرت : النوم على أغصان الشجر أوفر أمانا من مفاجآت البر. طبعاً هي غير مريحة لكنها مجرد ليلة عابرة. تسلقت الشجرة الأقرب إلى ملمسي. تأكدت من متانة أغصانها. ناديت على بدر أسفل الشجرة كي يلتحق بي. رفض. نومه عنيف. لا يستطيع النوم ثابتا. تركته. أضأت له، بالمصباح، دائرة ينام داخلها. نشر سترته البيضاء داخل دائرة الضوء على الأرض. استلقى عليها. كفه اليمنى تحت رأسه واليسرى تسخن بين فخذه. النوم لا يطاوعه إن ظلت يداه باردتين. شيء ما في سترته كان يعوق راحته. استوى ثانية ليبحث عنه. استله من أحد الجيوب ومده لي: كتيب جامع لحنظليات العلي. عاد ليتوسد بياض سترته ثانية. لكن يديه هذه المرة لم تكد تدفأ حتى ملأت حنجرته الكون صراخا. صراخ عال. حاد. منقطع: "النجدة!". يستغيث. يستغيث. يستغيث... وأنا مندهش فوق الشجرة أضيء بالمصباح دائرة، مسرحا، حلبة يتخبط داخلها :

**الأسود والأبيض**

(الشخير والنجدة)

**الأسود والأحمر**

(الشخير والأنين)

**الأسود والدماء**

(الشخير والصمت)

من أعلى الشجرة، أتابع المشهد الحي :

**سواد متوحش يفترس صديقا مرهقا.**

سنة 1995

## الأبدية

"واش حنا هما احنا

يا قلبي ولا محال

واش الدنيا هكذا

يا قلبي ولا محال"

مجموعة "ناس الغيوان" المغربية

الشمس في قلب السماء.

الساعة الحائطية تدق منتصف النهار.

القطار يصل إلى محطة المسافرين. نوافذ عربات المقدمة تطل مباشرة على هذا المقهى الراسي على هامش الحركة والترحال. الركاب يطلون من النوافذ على لوحة بارزة تحت إكليل من الزهور يبدو في وسطها كروتوس، إله الزمن، وهو يلتهم أبناءه. تحت اللوحة، جوقة من الرواد يتأفون من الملل بالتناوب :

1 - من لديه ساعة ؟

2 - لا أحد .

1 - كم الساعة، تقديرا ؟

2 - لا ندري.

1 - الأفضل أن نعرف الزمن بحركة ما...

2 - كل شيء جامد في مكانه. لا شيء يتحرك...

1 - حركة الشمس، مثلاً.

2 - الشمس لازالت في المكان الذي كانت فيه دائما...

الشمس في قلب السماء.

الساعة الحائطية تدق منتصف النهار.

القطار يصل إلى محطة المسافرين. نوافذ عربات المقدمة تطل مباشرة على لوحة قديمة يلتوي داخلها ثعبان يبتلع ذيله في شكل دائري أرقط. تحت اللوحة يجلس شخصان جنباً إلى جنب. يتحدثان دون تبادل نظرة :

1 - اسمع الأغنية !

2 - ...

1 - أهذا فصل الربيع ؟

2 - ممكن .

1 - متى حل الربيع ؟

2 - ربما لم يحل بعد...

1 - حتى الشمس لا تعطي فكرة ...

الشمس في قلب السماء .

الساعة الحائطية تدق منتصف النهار .

القطار يصل إلى محطة المسافرين . نوافذ عربات المقدمة تطل مباشرة على رسوم بسيطة تتوسط الجدار الخلفي للسطيحة : دوائر متشابكة ومنفصلة، دوائر لا نهائية ... يجلس تحتها شاب يقرأ كتاباً. يقاطعه جليسه :

1 - ماذا تقرأ ؟

2 - كتاباً عن الساعة البيولوجية في حياة المخلوقات ...

- 1 - أية ساعة ؟  
2 - هي داخل الكائنات الحية . كل جسم مزود بساعات خفية لها عقارب تضبط أوقات النوم واليقظة والجوع والحي... هذا ما يقوله الكتاب .  
1 - والإنسان، هل له ساعة داخلية ؟  
2 - لا أدري .  
1 - أنا لا أرى هناك ساعة خارجة عن الإنسان حتى تكون هناك ساعة داخله... انظر إلى الشمس!  
الشمس في قلب السماء .  
الساعة الحائطية تدق منتصف النهار .  
القطار يصل إلى محطة المسافرين. نوافذ عربات المقدمة تطل مباشرة على...  
الأبدية.

سنة 2001

## الأفواه الضاغرة

هنا قرب منحدرات التلال،  
أمام الغروب وفوهة الوقت،  
ن فعل ما  
قرب بساتين مقطوعة الظل،  
يفعل العاطلون عن العمل :  
نربي الأمل.

محمود درويش  
حالة حصار

### لوحة

يقف الحمار ,تحت الأثقال، بانتظار قدوم صاحبه لينخسه على ردفه ويسعفه ببضع ضربات على عنقه ليوجهه نحو طريق الخروج.

ينتظر الحمار دون سأم. يلعب بأذنيه. يوقف واحدة ويسقط الأخرى. يسقطهما معا. يرفعهما يلوح بهما ببطء. يقدم واحدة ويؤخر أخرى ...

### الانتظار:

يسقط شابان من سور الفندق بكيسين بلاستيكيين تتضغط داخلهما قطع خشبية ثم يختفيان بين قوائم الحمير. يطل الرأس الأول من مكان ما ليرقب العيون الآدمية ثم الرأس الثاني. وبضربة خفيفة لشفرة حلاقة يفصل الأذن الأولى عن جمجمة الحمار ثم يدخل فرشاة أذنية بين فكي الحمار ويقطع لسانه. ثم يبدأ حصاد الأذان والألسن : الأول يحصد من اليمين الثاني من اليسار حتى يلتقيان في الوسط ليفرا من الباب المشرعة، بأكياس منتفخة تقطر دما ...

صاحب الحمار يفيق من غفوته : حماره أحمر بلسان عمودي، وفكين متباعدين هربت قطرات دمهما خارج باب " الفندق " يهب للتو جريا في أثرها حتى يجد نفسه يطارد أكياس الأذان والألسن أمامه، وهو يصرخ.

الهاربان أمامه يلتسمان منه التراجع :

- وما تخافش ...
- وراه هاذ السلعة ماشي لاولاد البلاد ...
- وراه غاداتبا ع برا ....

يتخلف الرجل عن المطاردة يتوقف عن الجري ممسكا بفكه الأسفل المتدلي على صدره واللعب يتقاطر، خائرا ، على ساعديه...

يتحلق الناس حوله.

**دردشات هامشية:**

- ماذا حل به ؟
- أصابته أزمة ...
- أوه !
- تنرفز ولما صرخ بقي هكذا...
- ضعوا له المفاتيح في يده...
- لكنه مريض من فمه !..
- انظر داخل فمه !..
- لسانه يتحرك، لكن صوته غير مسموع...
- حماره أيضا، داخل الفندق بلا صوت...
- أوه ! سبحان الله. إذن ليس لدينا ما نفعله من أجله...
- انتظروا. لا تتركوا الرجل هكذا... لنأخذه إلى المستشفى.

**في المستشفى:**

**الممرض:** اجلسوه، هناك.

**الناس:** فكه سيسقط على صدره .

**الممرض:** حالة عادية. اجلسوه ، هناك.

**الناس:** والطبيب؟

**الممرض:** منشغل بعملية جراحية سيهتم به حين يعود...

**الناس:** وهل سيظل الرجل فاغرا فاه هكذا؟

**الممرض:** بكل هؤلاء الزبناء الذين سبقوكم لكراسي الانتظار يعانون من نفس

العطب. وجميعهم ينتظرون بافواه فاغرة. إن الفك الأسفل سريع الانفلات والسقوط.

التقوه بفتحة فم كبيرة أو الصراخ أو الضحك هو سبب العطب.

**الناس:** إذن، لينتظر...

**الممرض:** هل لديكم شغلا تقضونه ؟

**الناس:** لا.

**الممرض:** إذن، اجلسوا معه جميعا وانتظروا...

سنة 2001

## هوية

يادارة، دوري فينا  
ظلي دوري فينا  
تاينسوا أساميهم  
وننسى أسامينا

كلمات وألحان: الإخوان الرحباني  
غناء: فيروز

سلمني رجل الأمن النسخة الجديدة من بطاقتي الوطنية وظل يتابعني  
بنظرة تشف عن ريب من أمري ثم قال وهو ينفذ أذنه بسبابته :  
- بالك ! هذه النسخة الثالثة من بطاقتك الوطنية ، فلا تكن شماتة مرة  
أخرى. أسمع ؟

بالك !

بالك !

بالك !

خارج مركز الأمن، جاذبية إضافية تلتصقني بالأرض وتجعل خطواتي أثقل  
فأثقل.

استمتع بثقلي...

رشاش نافورة الساحة يذاعبني وأنا أبتعد نحو باب السوق. الزحام داخل  
السوق لا يفتر في أي وقت. الزبناء يتزاحمون، يتواجهون، يتدافعون بضيق  
بالغ. باعة الخضر والقطاني والسردين، على جانبي الممر الوحيد، ينبهون  
المتدافعين ويلعنون أمهاتهم وهم يضربونهم على وجوههم بربطات البقدنوس  
حين تنقلب لهم أكياس القطاني أو تنتشت لهم صناديق السردين تحت رفس  
الأقدام الهائجة:

بالك !

بالك !

بالك !

دفعة جانبية أخرجتني من شرودي ورمتني فوق أكياس القطاني. انقلب علي  
كشكول البضائع الرخيصة. أتمرغ في العدس والحمص واللوبياء بحثا عن موطئ  
قدم بين المتدافقين ...

أحس بالخفة.  
الزلة أفقدتني كل وزني، كل ثقلي... كأنني تخلصت من شيء ما، أو كأنني  
فقدته. أفتش في جيوب سروالي. الجيوب الأمامية... الخلفية... أعيد التفتيش مرة  
ثانية... الثالثة... ركبتي ترتعشان... الحافظة؟ ركبتي تخوناني في كل خطوة...  
البطاقة؟... أطلع الوجوه حوالي: الكل يتزاحم ولا أحد يهتم بي.  
السييل الآدمي يقذفنا خارج السوق، إلى الساحة الأخرى. رشاش هذه  
النافورة يرشقنا جميعا ببصاقه.

ركبتي ترتعشان. النسيم يغير لي وقفتي باستمرار.  
أنا الآن بلا وزن.  
أخف من الريشة.  
كأن جاذبية الأرض استغنت عني، فجأة.  
ربما أنا الآن أثير ضحك سراقي بهذا الذهول. ربما هم الآن يرشفون  
قهوتهم في إحدى هذه المقاهي، ويتنذرون بغبائي...  
أحد زملائي دلني على رئيس الفرقة المكلفة بعمليات النشل في السوق:  
رجل أنيق يرتدي بدلة رمادية وهو يرشف قهوته وحيدا تحت  
ظلة على سطيحة مقهى "المنظر الجميل" قبالة باب السوق.  
سألني الرئيس، حين أكملت قصتي:

- وأين سرقت؟
- أجبت:
- في السوق.
- لكن الرئيس، على ما يبدو، حريص على معرفة الجزئيات والتفاصيل:
- أين؟ عند الدخول؟ الخروج؟...
- عند الخروج.
- مال الرئيس على زميلي وهمس بصوت مسموع:
- زميلك غير محظوظ. الخروج ليس على حسابنا.
- ثم التفت إلي ثانية:
- ماذا كان في حافظتك؟
- بطاقتي الوطنية.
- صمت الرئيس برهة ثم قال بأسف مفتعل:
- أنت ضحية لصوص ليسوا أبناء البلد وهم يسرقون أي شيء من أي كان.  
ومنهم من يختص في سرقة الوثائق وبيعها للمهربين والمجرمين والبغايا...

رشف الرئيس قهوته ثم أردف :

كن حذرا !

لم أجبه .

ما جدوى الحذر بعد الآن ؟ !

واصل الرئيس نصائحه و عينه لا تبارح باب السوق :

- هؤلاء الذين سرقوا بطاقتك، سيطاردونك أكثر ليسرقوا المزيد من وثائقك :  
جواز سفر، دفتر شيكات، توقيع ... إن بطاقتك الآن تباع في مكان ما بالمزاد. وكل  
من اشتراها سيسبب لك متاعب كثيرة . لأنه سيصبح بمقتضى القانون هو أنت  
بالإسم والمهنة والعنوان والتواريخ... الوثائق، يا ابن بلدي، تصنع الشخصية.  
وكلما كانت الوثائق كاملة ومنسجمة، كانت الشخصية حقيقية وشرعية.

ثم التفت إلي قائلا :

- هل تتذكر وجهها من الوجوه التي ضايقتك عند مخرج السوق ؟  
أسترجع الأحداث والوجوه على شاشة ذاكرتي: الزحام، الدفع، لعنات  
الباعة، لهاث المتزاحمين داخل عنق قميصي، لامبالاة الوجوه حوالي...  
الرئيس ينتظر جوابي.  
قلت :

- لا.

تأفف الرئيس مستاء واعتذر عن مساعدتي .  
أنا لا أعرف سبب هذه الهيبة التي تعتريني كلما درجت سلم مركز  
الأمن. حتى الرايات تفزعني حين ينفضها الريح فوق رأسي...  
وضعت وثائقي على مكتب رجل الأمن :  
- هذه لوازم البطاقة الوطنية، وهذه شهادة الضياع ...  
اندهش الرجل :

- ضياع من ؟ ألسنت ذاك الذي تسلم النسخة الثالثة من بطاقة  
الوطنية هذا الصباح ؟...  
ظل مشدوها يتفرسني. عيناه في عيني تبحث عن الخدعة التي أنسجها  
له.

يتفرسني...

خبط أخيرا على مكتبه ثم نهض من مقعده، مستغربا :

- انتظر هناك. سأصعد لأستشير في قضيتك.

سنة 1994

## أرض الغيلان

"إن في رفع الأنصاب لخطرا فاحترسوا من أن يسقط عليكم التمثال المنصوب فيقضي عليكم (...). هذه نصيحتي إليكم، ابتعدوا عني وقفوا موقف الدفاع عن أنفسكم تجاهي، بل اذهبوا إلى أبعد من هذا، اخجلوا من انتسابكم إلي فلقد أكون لكم خادعا".

فريدريك نيتشه ،  
هكذا تكلم زرادشت  
(الترجمة العربية) ص. 105

- أيها الإخوة، تعالوا نتحلق حول الزعيم !...!
- أيها الإخوة، خطاب الزعيم!....
- اششش! ...

### خطاب الزعيم:

إن في رفع الأنصاب لخطرا فاحترسوا من أن يسقط عليكم التمثال المنصوب فيقضي عليكم (...). هذه نصيحتي إليكم، ابتعدوا عني وقفوا موقف الدفاع عن أنفسكم تجاهي، بل اذهبوا إلى أبعد من هذا، اخجلوا من انتسابكم إلي فلقد أكون لكم خادعا.

### الهيـاج :

- عن أي خداع يتحدث الزعيم ونحن في هذه الحالة الدنيئة؟
- يجب أن نخجل من أنفسنا...
- لازلنا نخاف الغول...
- شبابا وشيوخا ولا نقول إلا ما يروق للغول...
- ولا نفكر إلا فيما يهدده...
- الغيلان انقضت عند غيرنا منذ زمان ...
- ولماذا لا تنتهي عندنا ؟ ما الفرق ؟ !
- تلك مسؤوليتنا...

### خطاب الزعيم :

أيها الناس، أين المفر ؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله، إلا الصدق والصبر... فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهز الفرصة

فيه لممكن، إن سمحتم لأنفسكم بالموت... واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالأرفه الألد طويلا. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفر من حظي... واعلموا أنني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأنني... حامل نفسي على طاغية القوم... فقاتله... فإن هلك بعدة فقد كفيت أمره... وإن هلك قبل وصولي إليه، فاخلفوني في عزيمة هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله.

### الهياج، مرة أخرى :

- تحيا الشهامة !
- تحيا الشهامة ! ...
- تحيا الكرامة ! ...
- تحيا الكرامة ! ...
- أيها الإخوة، ساندوا الزعيم، في مواجهة الغول...
- نعم، ساندوا الزعيم، رافقوه نحو كهف الغول...
- يحيا الزعيم !
- يحيا الزعيم ! ...
- يسقط الغول !
- يسقط الغول ! ...

### خارج باب كهف الغول :

- أيها الإخوة، لنستعد لكل المفاجآت...
- مستعدين!...
- جميعا من أجل الكرامة !
- جميعا!...
- جميعا فداء للزعيم !
- جميعا!...
- الكرامة أو الموت !
- الكرامة !...
- أيها الإخوة، أليس مريبا هذا الصمت وراء باب هذا الكهف ؟ !
- هل التهم الغول الزعيم ؟ !...
- أيمن أن يلتهم الزعيم بهذه السهولة ؟ !...

### الخروج من الكهف :

- أيها الإخوة، باب الكهف يفتح...
- أيها الإخوة، حيوا الزعيم !
- يحيا الزرزرز...
- من ذاك الذي يضيف قبضته لقبضة الزعيم تحية لنا ؟...
- هل هو الغول ؟ !

- أيهما الزعيم ؟ !...!
- أيهما الغول ؟ !...!
- لا أدري، لكنهما يقتربان منا...
- ماذا عساهما يقولان ؟ !...!
- اششش !...!

#### الخطاب ، مرة أخرى :

أيها الناس، اسمعوا وعوا. وإذا وعيتم فانتفعوا... إن الدهر قد أدبني وقد أحببت أن أؤدبكم، وأزودكم أمرا يكون لكم بعدي معقلا... كفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه... أيها الناس، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي.ولهذا فإنني لأرى...

#### الصمت :

- !...!
- !...!
- !...!
- !...!

سنة 2000

## الشرح

"إذا ما رأيتم متداعيا إلى السقوط فادفعوه بأيديكم واجهزوا عليه. إن كل شيء يتفسخ ويتداعى في هذا الزمان ، فمن ترى يحاول دعم ما هوى؟ أما أنا فإنني أريد سقوطه"

فريدريك نيتشه ،  
هكذا تكلم زرادشت  
(الترجمة العربية) ص 239

### سكان العمارة :

- إنها تتشق أكثر فأكثر !
- هي تتصدع...
- ستتشطر ...
- هدير أول شاحنة سيهزها ويهدمها أرضا...
- ورب العمارة ؟
- هو يرانا جماعة مجانين مهوسين بانهيال البنايات...

### مالك العمارة :

لو كان الشق أفقيا لما قامت كل هذه القيامة. لكنه عمودي وينخرها من الأرض إلى السماء. الحقيقة أنه في البداية لم يكن بوسعي تفهم شكاوي سكان الطابق الأرضي حين لاحظوا أثر التشقق ولذلك صحت في وجوههم :

"العالم كله يتشق . ألا ترى عيونكم سوى هذه العمارة ؟"

وعندما تعالت الاحتجاجات من الطوابق العليا، سارعت بطلب بنائين مهرة حاولوا التغلب على الشق بحيل عجيبة. تعاملوا معه كجرح طويل وزرعوه أفقيا بقضبان حديدية لمنع امتداد الشق أو اتساعه ثم أعادوا إلصاق الفسيفساء والمنقوشات الجبسية مكانها. إلا أن الشق كان أقوى من كل تجميل وعاد ثانية ليشق باقي طوابق العمارة.

### جمعية المهندسين بالمدينة :

لا مفر من إخلاء العمارة من ساكنتها وهدمها قبل أن تودي بأرواح أهلها وتخرّب الوحدات السكنية حولها. فبناء العمارة، أصلا، لم يراع خصوصية الأرض التي أقيمت عليها ثم إن البناية رغم واجهتها العصرية فهي مبنية بطريقة غير شرعية فوق بيت عتيق...

ولكل هذه الأسباب فإن جمعية المهندسين بالمدينة تتبرأ...

ن - ت - ب - ر - أ .

## حارس العمارة :

سيدي، عندي لك خبران : الأول مقلق والثاني سار .

أما الخبر الأول، فالجرائد المحلية هذه الأيام لا تهتم سوى بموضوع العمارة وتنش في ظروف بنائها واحتمال انهيارها وتبعات الكارثة التي يمكن أن تتسبب فيها... فالسكان اخلوا العمارة ونصبوا الخيام حول إقامتك بالضاحية وهم يروجون للنزول إلى الشارع في تظاهرة تناصرهم فيها جمعية المهندسين بالمدينة...

أما الخبر الثاني، سيدي، فهو قدوم عبقرى المعمار العالمي إلى مدينتنا للاطلاع على مشروع بناء تتكلف به شركته الأجنبية. لهذا، فاتصالك به، سيدي، قد يفيد في إصلاح الأمور.

## مع مدير شركة البناء :

- الأمر بسيط، سيدي.

- يسرني أن أسمع ذلك، لكن كيف ؟

- ستحفر خمس سنتمترات يمين الشرخ وخمس آخر يساره. ثم تملأ العشر سنتمترات المحفورة من أسفل العمارة لأعلىها بورق الإسمنت. ثم تلبس كل ذلك بخليط الرمل والإسمنت.

- وسنتخلص من الشق بهذه السهولة !؟

- خليط الرمل والإسمنت سيلتصق بالورق المحشو في الشرخ. آنذاك، زلج كما تشاء واطل جدران عمارتك بأي لون تشاء فلا تخف ظهور شرخ أو قيام احتجاج...

- وهل سيلتئم الشق مع مدار الزمن ؟

- كلا. فالشرخ سيبقى داخل الجدار بنفس الشساعة والعمق لأن الأرض في هذه الجهة تتنفس، يا زبوني العزيز.

سنة 1994

## حديث غراب

"الإنسان الذي تطور من قرد سيعود قردا ، ولن يكون هناك أي أحد ليهتم بهذه النهاية الغريبة للكوميديا ( ... ) فمن المحتمل جدا كذلك أن تكون عاقبة الإنحطاط المحتمل للحضارة الأرضية في موليتها هي تبشيع فظيع جدا للإنسان، لينحط في النهاية إلى حيوان ثم إلى قرد. وبما أننا نستطيع التفكير في هذا الاحتمال فقد نستطيع تدارك انتهاء المستقبل إلى مثل هذا الأمر".

فريديريك نيتشه،  
إنسان مفرط في إنسانيته  
( الترجمة العربية )  
ص. 139

إحساس غريب سيعتريك وأنت تخطو داخل هذه الضيعة فنتساءل :  
- "هل نسيت أداة من أدواتي ؟"

تتفحص حقيبتك وتتأكد أنك لم نتس شيئا. لكن الإحساس الغريب سيلازمك وأنت تخطو بين أشجار البرتقال المتراسة على جانبي المدخل محددة لعينيك اتجاهها وحيدا.  
الإحساس الغامض يحتويك وتمرق بذاكرتك فجأة حكايات الأجداد عن أقوام الزمن الغابر الذين أساءوا الفعل فمسخوا غربانا وقردة وخنازير...

### فضاء الموت :

سيقف رب الضيعة، عند نهاية الممر، بانتظارك ماذا يده للمصافحة ليقول لك :

- علمت أمس أن معهد الفنون الجميلة وزع طلابه في مهمات فنية على عدة ضيعات بالبلاد...

ثم :

- أنت غير محظوظ...

وحين لا تدرك معنى الإشارة، يضيف :

- أنا أيضا أعشق فن التصوير، لكنني أفضل الطبيعة الميتة لخلوها من الحركة. الحركة معاناة. والإنسان بطبعه يكره المعاناة. الفن يجب أن يكون جميلا. متقائلا. ممتعا...

### فضاء الخلق :

ستتصب حامل اللوحة وتخرج أدوات الرسم والتلوين من حقيبتك استعدادا للعمل وتجلس لترتيب الأصباغ على حامله الألوان.

استترق نظـرة إلى ملامح رب الضيعة وستجده  
م - غ - تا - ظا - لل - غا - ية !... لكنه سيفتح ابتسامة متواطنة ويقول لك:

- خذ راحتك !

### فضاء الصمت :

الطبيعة أمام عينيك صامتة، ميتة... إنما المنظر متوازن وجيد التأطير: الأشجار على حافتي اللوحة تقف إطارا لها تسمر في خلفيتها القريبة بغل محمل بالأثقال، أما في خلفيتها البعيدة فترعى ثيران مغلولة القوائم، يجر اقواها من القرنين عبد من عبيد الضيعة، ويتقدم به نحو واجهة اللوحة...

يتبع الثور العبد دون عصيان ليربطه في جدع شجرة مقطوعة، قبالتك، في منتصف اللوحة، في انتظار الآتي...

### فضاء الأمر:

هنا لن تسمع سوى الأمر، ولن ترى سوى الطاعة :

- ماذا تنتظر ؟ ابدأ ! ..

- "حاضر، سيدي !" ، سيجيب "المعلم" الخصاء وهو يندفع نحو الثور.

هذا أمر، ومن السيد، رجل جبار يملك الأرض والثيران والبغال والعبيد الذين ورثهم عن أجداده أقوياء ومخصيين، لكنه رغم الإرث وشساعة ظل الأجداد، فقد بلغ به الاجتهاد في التفسير والتأويل حد مخالفة خط السلف في أمر جوهرى : فهو من حين لآخر يقدم على عتق رقبة من رقابه تكفيرا عن يوم راود فيه إحدى زيجاته أو محظياته أو سراريه فأفطر وإياها رمضان. إلا أن أغلب العبيد المعتقدين يعودون ثانية إلى هذه الضيعة رافضين حریتهم وكلهم حنين إلى حياة الماضي والخصاء.

### فضاء الطاعة :

سيقول السيد ل"المعلم":

- أريد ثورا قويا، ثورا يحرث الأرض بمفرده، ويشغل السقاية لوحده... أما الفحل، فستحتاجه أبقارنا للتخصيب ساعة في السنة وأنداك يمكنني كراؤه.

**فضاء الصخب:**

يظل الثور حول المقصلة، يشخر من الدوار حتى يهوي المخطب على خصيته :  
ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع ...!  
الثور يتمرغ في قيده... يحاول أن يركل من الألم... يصرخ... يعوي... ينبج... كأنه  
لم يكن يوماً ثوراً...

ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع !  
قرب الصراخ، يقف البغل برأسه داخل كيس متدل من عنقه يعلف النخالة بنهم...  
فضاء المسخ:

تنتظر إلى اللوحة أمامك وتجدها بعد كل العنف والصخب خالية من كل حركة،  
مجرد طبيعة ميتة : أشجار برتقال على جانبي اللوحة تؤطر الفراغ الذي كان قبل قليل يعج  
بالألم والصياح المسعور... وتتساءل :  
ماذا حدث للوحة ؟ ! .

ثم تنتبه للفرش بين قدميك على الأرض : مكسرة، مفتتة ... وتتساءل :  
ماذا حدث للفرش ؟ !  
وتتذكر يديك فنتحسسهما :

با ااااا ردتان ...

مشلو لتان ؟ ...

يدا رجل آخر ؟ ...

ليس كل ذلك مهما، المهم هو أن المسخ قد اختارك، وأنتك التحقت بمسوخ التاريخ، ومرحبا بك بيننا : قردًا على الأرض أو غرابًا في السماء.

سنة 1997

## وطن العصافير المحبطة

" كل إنسان تعجزون عن تعليمه الطيران  
علموه على الأقل أن يسرع بالسقوط."  
فريديريك نيتشه،  
هكذا تكلم زرادشت  
(الترجمة العربية)  
ص. 239

زحف بكرسيه المتحرك على سطح العمارة صوب الطفل الذي يرقب أسراب  
العصافير المتزحلقه على زرقه السماء ثم ربت بكفه الباردة على دفء الذراع الصغيرة  
هامسا:

- تذكرني كثيرا بأخيك، عباس...

تنهد الصغير، ثم :

- أكان عباس يعشق العصافير أيضا ؟

- حتى الجنون ...

صمت الرجل المقعد قليلا ثم أضاف :

- كان يقضي معظم أوقاته في مكانك هذا، وحيدا، يرقب صفاء السماء ويتابع رقص  
العصافير وهي تعلو وتبتعد...

وحين لاحظ إصغاء الطفل، استرسل :

"كان مغرما حد الهوس بالعصافير، سألني مرة عن لغة تواصلها، فقلت أنها

تغني وتزقزق، وكم أع - ج - بت - ه - ال - فكرة ! فقد صرخ :

- كم هو رائع، ياأبي، الغناء عوض الكلام !...

ثم بحماس زائد :

- والغذاء ؟ !

أجبت به بأن العصافير لا تعرف مشاكل غذاء : هي تققات في أي وقت شاءت ومن أي

حقل في الدنيا لأن العالم يصبح أصغر وفي المتناول حين نطير، ولذلك فهي تختار

أماكن إقامتها، ومنها ما يختار الحياة فقط في الفصول الجميلة مهاجرا من شمال الدنيا

إلى جنوبها بحثا عن الشمس والغذاء...

لكن عباس فاجأني ذات مرة :

- هل يمكنني أن أطير، يا أبي ؟

نفيت.

- الأجداد فوتوا علينا فرصة الطيران.

لكنه كان يحتج بانفعال بالغ :

-مالي والأجداد، ياأبي ؟ أنا أسأل عن نفسي ...

وأضطر لأعقلن الأمر :

- كان على الأجداد أن يجربوا الطيران من أول الزمان حتى يكتسبوا أجنحة وينقلوا

لنا قدرتهم على التحليق ولكنهم لم يفعلوا. ولذلك نحن الآن على الأرض، بلا أجنحة.

- سألصق ريشا على ذراعي وأطير ...

أجبتّه بأن الأجنحة لا تلتصق. الأجنحة، مثل ملامح الوجه، تورث.

- أنا لن أبقى مسمرا هنا، أنا أريد أن أطير...

- لن تطير...

- سأطير...

لقد جربت قبله ما كان هو بصدد التفكير فيه. أنا أيضا كنت طفلا مثله وحاولت

الطيران من حافة هذا السطح غير مبال بحشد الجيران في الشارع تحتي، ممسكين

بالملاءات من أطرفها وهم يناشدونني ألا أنتحر :

- ما تنتحرش، راه ما عندك لا دنيا ولا آخرة !...

- ما غاديش انتحر، أنا غادي انطير ! ...

- وراه ما عندك لا دنيا ولا آخرة ! ...

لكنني ارتميت من حيث تقف أنت الآن. إنما عوض أن أطير، سقطت عليهم بقوة

حتى تمزقت الملاءات التي كانوا ينشرونها لي فارتطمت بصلابة الأرض وتكسرت ساقاي.

والنتيجة أمامك : أنا لا أطير، أنا أزحف... لكن عباس، أخاك، ازداد ولعا بحياة العصافير

ونسلمها وتغريدها إلى أن وجدت نفسي مرة أزحف بكرسي المتحرك لأطل على الشارع،

أسفل العمارة، حيث احتشد الجيران لتضميد الججمة المشطورة للذي حاول الطيران،

تهورا..."

سحب الأب المقعد كفه الباردة عن ذراع الصغير لاستخلاص العبرة من التجربة.  
لكن الطفل سبقه، ووجهه دائما إلى الأفق البعيد :  
- لا تخف، يا أبي، لن أفعل مثلك ولا مثل عباس...  
ثم جازما :  
- سأطير، يا أبي، وسأنجح في ذلك.  
سنة 1997

## افتح يا سمس

إلى شاب جامعي معطل

ما هذا ؟ ...  
مرتبي ؟ ...  
هل أصبح لي عمل ؟ ...  
هل هذا تعويض عن عطالتي ؟ ...  
أنا لم أَلَف المفاجآت في حياتي ... و الآن ؟ ... هل أحلم ؟ ... هل أعيش حياة ثانية ؟ ... مئات الدراهم ! ...  
في جيبي أوراق نقدية من فئة مئة دراهم ! ...  
عجبا ! ...  
أتحسس الأوراق ... الواحدة تلو الأخرى ... أُنْهِئها أكمشها ...  
هبة من السماء ! ...  
أرفعها قبالة الشمس ... أتفحص الخيط الفضي داخلها ...  
الخيط هناك ...  
الخيط واضح و غليظ مثل هراوة ... عبارة التهديد مكتوبة أسفل الورقة المالية بالعربية الفصحى :  
"كل من حرف أوراق البنك أو زورها أو ساعد على ذلك سيعاقب طبقا للقوانين والقرارات الجاري بها العمل" ...  
لا مجال للشك ... الأوراق البنكية حقيقية ...  
- "الآن أصبحت مسؤولا عن أسرتك ... يجب أن تشتري ملابس لاختويك ... هناك متجر في المنعطف" ...  
انتبهت الى مصدر الصوت عند قدمي ...  
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! ...  
من هذا الذي يرشدني ؟ ... متسول حاف عار يستر عورته بيديه ! ... إنه يعرف ما يدور في دماغي ! ... و هؤلاء الرجال المعتصمون قبالة تلك البوابة وهم يئنون شعارات حزينة ، هل هم يموتون ؟ ... إنهم يكترون ... شكاويهم تملأ المكان صخبا :  
- أنا مطرود " ...  
- أنا موقوف " ...  
- أنا مرفوض " ...  
- أنا .. " ...  
يغمرنني الخوف ... أضطرب ... تسود الدنيا أما عيني ... سواد ظلام دامس ... أتحسس الحاجز أمامي ... أبحث عن مخرج ... هذا باب ... باب موصد ... باب خشبي ... حديدي ... حجري ... أقرع الباب ...  
لا أحد يجيب ...

أنادي بكل قواي:

- "افتح يا رفيق!"

سكون ...

- "افتح يا أخ!"

سكون

- "افتح يا سمسم!"

وينفتح الكون! ... وينجلي السواد ...! وتتقشع الظلمة عن رجل و طفلين ... عن بائع و ... اخوي الصغيرين! ...

يا للصدفة! ... اخوي! ... ها هما يقيسان القمصان ... يشاوران البائع ... في اللون ... في الطول ... في العرض ... ياااااااااا! ... يا العجب! ... سبقاني للمتجر! شيء ما حدث! ... لم تبق لي أسرار ... حياتي لم تعد لي وحدي ... أصبح غيري يعرف أسراري ويسمع أفكاري ... أصبحت أخاف أن أفكر ...

- لا تخف! ... يقطع البائع تفكيري يربت على كتفي ... لا تخف فكر كما تريد ... ما يحدث هو مجرد تفاهم ...

ينحني البائع على الطفلين ... يقبلهما ... أسناهما تزداد بياضا تحت بسمه الفرحة بكسوة العيد ... أودي ثمن القميصين ... و لأول مرة أحس بمتعة صرف المال! ... متعة المسؤولية! ... يقبلني أخوي ... ينصرفان ... نشيطين على غير عادتهما ... يقفزان ... يجريان ... يتوقفان ... يطالبان المارة أن يقرؤا لهما الكتابة على صدر قميصهما ... يرددانها ... يفرحان بها ... يجريان ... يطلقان ذراعهما الصغيرتين ليطيرا ... يحاكيان اللقلاق القادم من الجنوب، السابح على مهل في زرقة السماء، باسطا جناحيه الطويلتين وهو يميل يمينه ويسرة يمينه ويسرة دون أن يحرك جناحيه ... يعلو... ينحني... يهزهز جناحيه قليلا ... يستريح وهو يحوم ... جناحاه دائما مبسوطتان ... يعلو... يعلو... فوق الربيع ... فوق النخيل ... فوق الجبال ... فوق السماء ... فوق الشمس البيضاء بياض اللبن ...

كم اشتقت للبن!

- اللبن يطهر الجسم ... الحامض منه خاصة ...

هكذا يقول النادل للزبناء المتهالكين على الكراسي ...

- السكر والحلوى مفيدان للحنجرة أيضا ... يضيف من وراء منضدته البيضاء كقبر عظيم ... المقهى كله قبور ... قبور بيضاء ... قبور في شكل موائد حولها كراسي يتهالك عليها الأحياء من أهل المدينة .... يفتخر مالك المقهى بمقهاه ... " مقهى أحياء و أموات " ... يطالبنا بالصمت:

- اشششش...

الأمر الأبدي بالصمت يثير احتجاج الموتى تحت القبور المبنية بالحجر ... يثير قلق من حولي من الأحياء ... أنا الآن أنقهم توترهم نحن لا ننبس ببنت شفة حتى يطالبنا أحد بالصمت ... هذا ظلم! يجيب مالك المقهى:

- أنا لا أظلم أحد ... كلامكم يعرض مقهاى للخطر ... يعلق المالك لوحة على الجدار  
قبالة الجميع:

### "الرجاء من الزبناء الكرام عدم التدخين والكلام والصراخ حفاظا على الصالح العام".

ينفجر القبر الأول ... ينفجر الثاني ... الثالث ... تتور ثائرة الأحياء و الأموات ... كل  
الزبناء ... الموتى .. المجانين .. ماسحي الأحذية .. المومسات .. بائعي السجائر ...  
المتسولين ... شباب يستتر عورته بشواهد الجامعة ... يستقيم الجميع ... يجربون  
حناجرهم ... ينتفون لوحة الأمر و النهي عن الجدار ... يكسرونها ... يفتتونها يلقون  
بفتات الأمر بعيدا ... ينصتون للوحي للإلهام ... لأنشودة الخلود ... لصوت عبد الرحمان  
المجذوب ... تجري في صخب وفوضى وراءه ... ندوس بالأقدام من يعترض طريقا ...  
نلتحق بالشاعر ... نتخلق حوله ... نرسم دائرة من الأجساد حوله ... نتزاحم ... نطيل  
الأعناق لنسمع المجذوب ينشد ملء حنجرته ...  
نضطرب إجلالا ...

هذه النبوة ! ... هذا المنظر ! ...  
ننظر الى أسفل الجبل ...  
أسفل سافلين ...

ننظر الى مدينة القصر ... مدينة القصور ... مدينة خالية من الحياة إلا من حركة أولئك  
الذين يسرعون لغلق نوافذ فيلاتهم و قصورهم ... ننظر الى وادي المخازن ... مياهه  
شفافة ... مياهه برتقالية ... حمراء ... قانية ... سوداء ... النهر يمتلئ سوادا ... يمتلئ  
... يمتلئ ... سطح مياهه يعلو بإصرار نحو حاشية السد ... إننا ننتظر الفيضان الأخير ...  
ننتظر الطوفان من على قمة جبل صرصر ... نعد لانفجار السد بجنون ... نعد لغرق  
سياستيان البورتقيز ... نعد لغرق الطاغوت ... نلوح بالأأيادي ... بالقمصان بالجلابيب ...  
نكبر ... نكبر ... نكبر ...

الله أكبر

(..) (..)

الله أكبر

(... ! ) (طق ! )

الله أكبر

(طق ! ) (طق ! )

الله أ...

(طق ! ) (طق ! )

...

(طق ! ) (طق ! )

استيقظ عرقانا ... تكبيرات غامضة و بعيدة ترن في ذاكرتي على إيقاع الدق على الباب .

طق ! طق !

طق ! طق !

يشد الدق على الباب ... أصيح:

- انتظر ! "...

يهدأ الصداغ لفترة . انتهز المهلة . اتقوه . اقرأ الشخبطات الجديدة على الحائط قرب السرير . اقترب منها أكثر . افرك عيني لأقرأ جيدا :

الشغل حق مضمون

الشغل شـ شـ الشغل

حق حـ حـ حق

مضمون ضـ ضـ مضمون

تنظيم السطور وتفكيك الحروف يذكرني بدروس الخط في المدارس الابتدائية . هذا خط أخي الأصغر انه لا يثق في ذاكرته لهذا فهو دائما يدون كل ما يسمعه أو يدرسه ... حلمه هو أن تجعل منه دراسته معلما أو أستاذا . الخط المتموج يعكس رغبته في البقاء على السطر المفترض على الجدار . لا يخفى علي أبدا أنه بدل جهدا كبيرا ليكتب كل تلك الكلمات عالية لهذا الحد كي يقنعني أنه كبير فعلا .

يعود الطرق على الباب، من جديد .  
أقفز من السرير . أتعثر في سروالي . أتدرك نفسي من السقوط . أجد نفسي أمام الباب . أفتحها على رجل في بذلة مهنية . أفرك عيني : ساعي البريد .  
يمد لي ساعي البريد رسالة قائلا :  
- " رسالة مضمونة . وقع هنا " .

يمد لي السجل أشخبط توقيعني تحت أصبعه يسحب سجله ثم ينصرف .  
أزن الرسالة بيدي . هي في مثل ثقل الرسائل المضمونة التي ألقت تلقياها . لقد نميت حاستي السادسة جيدا خاصة فيما يتعلق بالرسائل المضمونة . إنني أستطيع التكهن بمحتوياتها دون الحاجة الى فتحها : إنها لا تحتوي سوى على وثائقي المرفوضة في مباراة شغل .  
رميت الرسالة داخل البيت . هاهي تسبح في فضاء البيت ، ترتطم بالجدار وتترنح ساقطة أسفل الدرس الطفولي .

الشمس ثابتة في وسط السماء . ساعي البريد ، مثل جنبي ، يزحف نحو أبواب الجيران ، بلا ظل . يدنو من الباب الأخرى ، محملا بالسجلات و كسوة العمل و محفظة الرسائل . يطرق الباب من جديد ثم ينطق :

- " افتح يا سمس ! " .

ينظر ساعي البريد باتجاهي . ينظر الى عيني بالحاح . ملامحه تقاوم ابتسامة قوية . تغلبه أخيرا . يبتسم .

سنة 1991

## الحياة بملامح مجرم

"ما الإنسان الذي يكرهه الشعب كره الكلاب للذئب إلا صاحب الفكر الحر عدو القيود الذي لا يستعبد ولا يلذ له إلا ارتياد الغاب".

فريديريك نيتشه،  
هكذا تكلم زرادشت  
( الترجمة العربية )  
ص. 130

قد يحدث لك هذا غالبا في دار السينما حين تدخل القاعة المظلمة متأخرا وتجد الشريط في منتصفه والممثلون يتحركون ويتحدثون عن أشياء فاتك أولها...  
نقر المطرقة على المنصة يطلب الصمت من الجمهور المحتشد داخل قاعة تشبه قاعات المحاكم، وتندesh حين تدرك أن صاحب المطرقة يخاطبك من دون الحاضرين :  
- أنت، ضمن مجموعة اليوم، تنتظر إدانة قبلية لاحتمال ارتكابك جرائم بعدية، وهو، كما تعلم، إجراء وقائي عادي ومحلي مثل التقييط والختان وال... وكما تعلم، فمحلية تشريعنا تسهر على الوقاية القبلية من خطر إيقاظ الفتنة النائمة في الرؤوس بالعقاب القبلي حتى يتعرف كل على دوره وحدوده.  
وتنتبه فجأة فتجد نفسك أنت السينما وأنت الشريط وأنت الظلام الذي يذيب فرديات الحاضرين ليجعل منهم متلقيا واحدا.

"الشهود، من فضلكم !"

شهادة المنجم :

أقسم ألا أقول غير الحقيقة.

انظروا، يا سادة، إلى أهم خطوط كفه. انظروا إلى خط الرأس. إنه يبدأ من خارج خط الحياة وينحدر نحو الأسفل بشكل مخيف ينذر بتحرر يصل حد التهور واقتراف أبشع الجرائم.

يكفي، يا سادة، أن تتصوروا كائنا لا يوجد على كفه أثر لخط القلب : البرود التام... ومع ذلك فسيعمر طويلا لأن خط الحياة على كفه طويل، واضح، بدون كسور أو شذوذ...

كما أن اسم المتهم يدل بوضوح على برجه. و هو برج كبار المجرمين والقتلة، ومميزات مواليد هذا البرج: الغموض، التكتّم الشديد، التصلب في المواقف، العنادة، الميل للوحدة القاتلة...

مجمل القول، خاصية هؤلاء المواليد هي الإنفلات من العقد والتدحرج بعيدا عن الخيط...

#### شهادة الأب :

أقسم ألا أقول سوى الحقيقة.

أنا الأب وهو الابن. لكن علاقتنا غير طبيعية منذ البداية. منذ سن رضاعته وهو يكرهني . هو يراني سلطة تحد من حريته في البيت ولذلك سجن ذاته في غرفة جدرانها ملطخة بأصباغ متداخلة وخطوط غير ذات معنى تخنقي في بعض الجهات من الجدار تحت صور حيوانات مقتصة من مجلات ملونة.

#### شهادة صديق الطفولة :

أقسم إلا أقول إلا الحقيقة.

لقد كان المتهم زميلا من زملاء المدرسة. وأذكر أنه كان التلميذ الوحيد في الفصل الذي يرتدي وزرة بيضاء مخالفا للون الرسمي لوزرة المدرسة : الأسود. كما كان يرفض بنفس العنادة نقل نماذج الخط والرسم التي يسطرها المعلم على السبورة ولذلك كانت نقطته عند التقويم دائما من أسفل سلم التنقيط.

#### شهادة النظاراتي :

أقسم ألا أقول غير الحقيقة.

ولكن لنضع النقط على الحروف، أيها السادة. فاللون الأبيض الذي يعشقه المتهم حتى الجنون ليس لونا بسيطا كما يبدو. إن دلالاته أكبر. إن الأبيض هو نتيجة مقاومة الكتلة للأشعة الضوئية المتسلطة عليها. الأبيض، ياسادة، هو لون المقاومة، لون الرفض، والإنسان حين يختار لونا من الألوان فهو يختار لغة بصرية للتعبير عن ذاته ورغباته.

#### شهادة شرطي المرور:

أقسم ألا أقول غير الحقيقة.

هذا الشاب متى مر أمامي، كان وحيدا وهادئا مهما تسارعت المشاهد حواليه ومهما عظمت حركة المرور. دائما هادئ بإيقاع تنفسي ثابت: إثنان – أربعة – إثنان – أربعة،

وهي أولى مبادئ التنفس في رياضة خارقة تقوي الإنسان بهدف تحكمه في جسده وروحه...

### **شهادة موظف المكتبة البلدية :**

أقسم ألا أقول إلا الحقيقة.

انظروا ! لدي لائحة الكتب التي سحبها المتهم من رفوف المكتبة البلدية خلال هذا الشهر. ففي الأسبوع الأول من هذا الشهر، قرأ كتابا في الفلسفة وآخر في الدين. وفي الأسبوع الثاني، كتابا في العلوم وآخر في الأسطورة. وفي الأسبوع الثالث، ديوان شعر ووثائق سياسية...

أحاول أن أتصور، يا سادة، شخصية إنسانية تقرأ في الآن ذاته للأنبياء والملاحدة، للجبابرة والمنبوذين...أحاول أن أتصور، ولكني لا أتصور شيئا.

### **شهادة رب عمل :**

أقسم ألا أقول سوى الحقيقة .

أنا، يا سادة، لا يخدعني تنفسه ولا هدوؤه... ولذلك أرفض باستمرار طلباته للعمل عندي. فكلما تامة الحروف والنقط والحركات دون تشطيب وبخط غليظ مفعم بثقة مبالغ فيها. لكن الحروف تنقصها المرونة والاستدارة الكافية : هي مجرد مثلثات ومربعات حادة الزوايا تعكس شخصية غير مرنة. إنما دقته المفرطة في رسم الحروف تعبر عن خوفه من انفلات أشياء من يده وانكشاف أمره. إنه يتستر على شيء ما. أما ما هو هذا الشيء، فهذا ما لا أعرفه يا سادة.

### **شهادة الفوتوغرافي :**

أقسم ألا أقول إلا الحقيقة.

في كل الصور التي أخذتها له، أيها السادة، ستجدون نفس الديكور : سرير ومنضدة صغيرة تحيط بهما جدران ملطخة بالألوان والخطوط، وجدران مرقطة بصور ملونة لذناب مختلفة الأحجام تقترب خرفانا مضرعة بالدماء. ذئب هنا، ذئب هناك... إنه يرى نفسه ذئبا متوحشا ووحيدا ولذلك فهو يفترس الجماعية في الحياة القطيعية للخرفان.

### **نص الحكم :**

بناء على تصريحات الشهود،

وبناء على...

وعلى...

فقد تمت إدانة المتهم، ضمن مجموعة اليوم، بالسجن المؤبد مع وقف التنفيذ، ورفعت  
الجلسة.

سنة 1996

## هل كان سقراط مجرماً ؟

كان سقراط ينتمي بالولادة، إلى أكثر الدهماء دونية : كان سقراط رجل الشعب. نعرف، ويمكن كذلك أن نلاحظ كم كان سمجاً. لكن القبح، الذي كان في حد ذاته اعتراضاً، كان بالنسبة للإغريق مبرر رفض، تقريباً. من جهة أخرى، هل كان سقراط إغريقياً؟ غالباً ما تكون السماجة تعبيراً عن تهجين، عن نمو معاق بفعل التهجين. في حالات أخرى تكون شهادة على تطور منحرف. الإناسيون من بين علماء الإجرام يقولون لنا إن المجرم المميز سمج. بل المجرم منحط. هل كان سقراط مجرماً مميزاً؟ على أية حال، لن يكون ذلك مناقضاً لهذا الحكم الشهير الذي نطق به فراس، ووجده أصدقاء سقراط جارحاً. خلال مروره بأثينا، قال غريب خبير بالوجوه لسقراط، مباشرة، بأنه قبيح وبأنه ينطوي على أقبح العيوب وأسوأ الشهوات. وقد اكتفى سقراط بأن أجاب : "لشد ما تعرفني جيداً"

فريدريك نيتشه  
"أقول الأصنام"  
(الترجمة العربية)  
ص 20/19

## تحرير القارئ وجعله منتجا

أجرى الحوار: الكاتب المغربي عبد الله المتقي

\* لأن النقاد كسالى، على حد قول أحمد المديني، يبدو من الضروري خروجنا ككتاب للمساهمة في التعريف باشتعالاتنا . وبالمناسبة، عنت لي الأسئلة التالية: نشرت مجموعتك القصصية " في انتظار الصباح " على شبكة الانترنت ثم في كتاب مستقل، هل يعني هذا العودة بالكتاب إلى القراءة المتأنية والمتأملّة؟

- لا أعتقد أن هناك وسيلة من وسائل الثقافة والتثقيف يمكنها التغلب أو القضاء على الكتاب في أي زمن من الأزمنة. الكتاب يبقى مرجعا حتى للصورة وللثقافة الرقمية اللتان من المفترض أن تكونا خصمين للكتاب. بل حتى جمالية الغلاف والتصنيف والإخراج وشكل العرض على الرف يجعل من الكتاب منبع متعة لا تقاوم. لا أعتقد أن بالإمكان تحقق كتاب دونما مرور عبر البوابة الورقية والتوزيع التقليدي والقارئ الواقعي. النشر الإلكتروني عبر الأنترنت مهم لتعزيز الحضور الثقافي العربي على الشبكة الدولية للمعلومات ولدعم حركة الإحياء الإلكتروني العربي. فلقد أقدمنا على نشر كتبنا كاملة على ومباشرة على الويب في شكل كتب إلكترونية (e-books) على عدة مواقع: مبدعون عرب، ناشري، بحثكم، المنشاوي، الإستراتيجية، ربحانيات، أسليم... لكن الكتاب، في شكله الورقي، يبقى مرحلة لا يمكن تجاوزها وحلقة رئيسية من حلقات نشر الفكر والإبداع والمعلومة.

\* اختيار العنوان لا يخلو من مقصدية. لماذا اخترت " في انتظار الصباح " عنوانا لقصصك؟ متى يأتي الصباح الذي تنتظره؟

- قرأت مرة للكاتب المغربي محمد شكري هذه الفقرة التي يشتكي فيها من صعوبة اختيار عناوين أعماله الإبداعية: " الصعب عندي قد يكون في اختيار عنوان مناسب حين انتهائي من نص. إن العنوان ينبغي أن يكون مثل عرف الطاووس أو ذيله ". أهمية العنوان تكمن في قوة جاذبيته للقارئ، تلك الجاذبية التي تقابلها في مجالات الحياة الأخرى جاذبية اللون والرائحة واللمس. العنوان، كما يراه رولان بارت، يجب أن يثير في القارئ الرغبة في القراءة. هذا عن أهمية اختيار العنوان، أما عن معايير هذا الاختيار، فأعتقد أن هناك نموذجين: نموذج العنوان المفروض من خارج النص وهو يتماشى مع تقنيات الكتابة السردية ذات النزوع الشمولي. أما النموذج الثاني، النموذج العضوي، فهو نموذج العنوان المنتقى من بين النصوص المتضمنة في المجموعة القصصية، فيتماشى مع تقنيات الكتابة السردية ذات التوجه الانفتاحي

الحواري... وهذا ما قمنا به في إصدارنا هذا: فنص " في انتظار الصباح " ، قبل كونه عنوانا للمجموعة القصصية الراهنة، هو نص تتقاطع فيه جميع نصوص المجموعة شكلا ومضمونا: دائرية الزمن، القلق الوجودي، الفراغ، الانتظارية... ولذلك وقع عليه الاختيار كعنوان عضوي للمجموعة القصصية.

**\*المقبل على المجموعة تثير انتباهه صورة "حنظلة" على الغلاف. لماذا "حنظلة" ؟**

- "حنظلة" ، كما قدمه فنان الكاريكاتير العالمي الراحل ناجي العلي، هو الطفل الفلسطيني الشاهد الغاضب على الراهن العربي والمنتظر لغد مشرق جديد. إنه الطفل الذي لن يلتفت إلينا ولن يرينا وجهه إلا بعد جلاء الليل الطويل الطويل. "حنظلة" كان صورة أو كاريكاتيرا أوتوقيعا لناجي العلي، ولكنه اضحى اليوم رمزا إنسانيا للدهشة والتوق للتغيير. لذا حق علي، كمصمم لغلاف الكتاب وككاتب للنصوص، ان احتفل بهذا الرمز العربي الجميل ذي البعد الإنساني الواضح.

**\* تستهل قصصك دوما بمقاطع من نصوص أخرى. لماذا هذا الاستهلال؟ ما وظيفته؟ وهل هو ضروري؟**

- من حيث العرض، الأسلوب قديم قدم القص ذاته. فاول من استعمل هذه التقنية هو الكاتب الفرنسي الكبير ستاندال. ولكنني لم استعرها من باب المحاكاة والتقليد، بل استعرتها لأداء وظيفة أروج لها في كل اعمالي الإبداعية والفكرية: الحوار والحق في الاختلاف الذي ذهبنا لاعتباره قانونا في كتابنا الاول "إرادة التفرد". النصوص الاستهلالية الموجودة في بداية كل نص جديد من نصوص المجموعة تحيل مباشرة على حوار مع نصوص وثقافات مغايرة، وهذا الحوار الذي يصل أحيانا حد الاحتكاك بين النصين قد يثير في القارئ الميل لإنتاج نص ثالث، نص حر... وهذا هو رهاننا الذي يختلف عن رهان ستاندال : " مساعدة القارئ ليصبح منتجا".

**\* تبدو شغوبا بتشظية نصوصك إلى عناوين فرعية، ما سر هذا التفتيت؟**

- لا أعتقد أن " التشظية" كتقنية سردية كانت قانونا يفرض على نصوص المجموعة فرضا. " التشظية" تقنية وظيفية الهدف منها هو مقاربة المحكي من خلال شكل العرض القصصي. ولعل عناوين النص تقصص على ذلك: "التشظي"، "المقص"، " الشرخ"... إذ يصعب عرض نص يحمل عنوان "التشظي" أو "المقص" أو " الشرخ" من خلال شكل سردي مستمرسل حالم و وديع ومتناغم. الحكي، كل إنسان قادر على تجربيه وممارسته. لكن الوعي بالشكل وبالأدوات المشغلة لغرض الحكي هو ما يجعل من الكاتب كاتباً حقيقياً.

نص منشور بجريدة "الصحيفة الأسبوعية" المغربية  
عدد 135 بتاريخ 13-07 نوفمبر 2003

## السيرة الذاتية للكاتب محمد سعيد الريحاني



محمد سعيد الريحاني

باحث وقاص مغربي

من مواليد 1968/12/23

بمدينة القصر الكبير

يحمل الإجازة في الأدب الإنجليزي

صدر له:

-الإسم المغربي وإرادة التفرّد (دراسة سيميائية للاسم الفردي)

2001

-في انتظار الصباح (مجموعة قصصية) 2003

له قيد الإعداد للطبع:

-دفاعا عن القراءة: حول أشكال النهوض بفعل القراءة عربيا

-إرادة الاختلاف: دراسات اسمية في الهوية والمغايرة

-وراء كل عظيم أقزام: مجموعة قصصية

-The promethean passion (essays on George Bernard Shaw's  
drama & philosophy)

موقعه الإلكتروني: <http://www.raihani.cjb.net>

البريد الإلكتروني: [saidraihani@hotmail.com](mailto:saidraihani@hotmail.com)